أزمة الوعي الديني.. قراءة نقدية في الخطاب الديني المعاصر

محاضرة ألقيت في منتدى الثلاثاء الثقافي بتاريخ ٣٠ ذو الحجة ١٤٢٨هـ الموافق ٨ يناير ٢٠٠٨م

مسفر القحطاني
أستاذ جامعي

في ظل الظروف التي نمر بها لبيان بعض الرؤى وإثارة بعض التساؤلات التي نأمل أن تثمر عملًا مرشدًا يخدم الأمة الإسلامية، وسأبدأ بتعريف مفردة الوعي لغويًا، وهو ـ كما يقول الفيومي في المصباح المنير ـ الحفظ والتدبر، وجمع الشيء، من قوله تعالى: ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَى﴾[1]، وزاد الكفوي في كتابه (الكليات) بأن الوعاية أبلغ من الحفظ، لأنها تختص بالباطن، أي القضايا الإدراكية أكثر من القضايا النصية الظاهرية. ومن هنا، يعرف الوعي بأنه الحفظ مع التدبر.

أما تعريف الأزمة، فالأزمة في معناها اللغوي الشدة والضيق، كما جاء في تعريف جبران مسعود في موسوعته (الرائد)، وبالعودة إلى المراجع اللغوية الأصيلة والبحث في جذر الأزمة اللغوي ومعناه وجدت لها معنى الضيق وتداني الشيء بالشيء بشدة والتفاف وتداخل وتقاطع. ومن ذلك أستخلص أن وعي الأمة يقصد به حفظها لدينها وتراثها من غير إنقاص، وأن الأزمة في هذا الوعي تكمن في الاقتصار على حفظ هذا التراث دون فهم متوازن لجوانبها الفكرية المتدانية والمتداخلة مع بعضها البعض بشكل يصعب على الرائي فهمه.

بعد هذه المقدمة التعريفية لعنوان حديثي، سأقدم لكم قراءة

(١) سورة المعارج، الآية ١٨.

سريعة للواقع الديني المعاصر، محاولًا تأصيل مفهوم هذا الوعي في الشريعة الإسلامية، وسأبدأ بحال العرب قبل بعثة النبي ﷺ، والمتأمل لهذه الفترة يجد أن هناك خرافات وصور شركية كثيرة كانت تسير المجتمع من خلال روابطه الاجتماعية، كعبادة الأصنام، وصور النكاح، والوأد، ثم الصراع القبلي، حتى بعث الله رسوله ﷺ ليخلق في هذا المجتمع تحولًا كبيرًا قلب حياة الجهل والانغلاق إلى حياة المعرفة والانطلاق لصناعة إنسانية حقيقية حرة بعيدًا عن شهوات الغريزة وقيودها. قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاء مِنْ عِبَادِنَا﴾[1].

توضح هذه الآية أن الذي نزل على هذه الأمة - وهو القرآن الكريم - كان بمثابة الروح التي دبت في جسد ذلك المجتمع الميت وسرت بها فيه الحياة فأدرك الطريق الصحيح لمدارج النهوض والكمال بادئًا بكلمة (اقرأ)، تلك الكلمة العظيمة التي أدرك بها الناس حقيقة الوجود وواجباته، كما أدركوا حقيقة الحياة بعد الموت، وكان كل ذلك بعيدًا عن دائرة اهتمام المجتمع الجاهلي.

لقد غيّر رسول الله ﷺ ذلك المجتمع حتى صنعوا لهم غايات وأهداف ومنهجية علمية رصينة؛ أصبحوا بها في وقت قصير مشاعل هداية وعلم ورفعة وتحضر وسؤدد، الأمر الذي أثار استغراب فارس والروم إذ فتحوها. سأل القائد الفارسي رستم ربعي بن عامر عن سبب مجيئه، فقال: «إن الله ابتعثنا لنخرج العباد من عبادة العباد إلى عبادة ربّ العباد، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام».

لقد كان عهدًا جديدًا قائمًا على العلم والبيان والحجج العقلية الدامغة في رسالة اعتمدت على المشترك الإنساني وأثارته ليدرك الذي يسير عليه، ويتمسك به عن عقل وقناعة، وليس من خلال

(١) سورة الشورى، الآية ٥٢.

ما أشار عز وجل في قوله: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ﴾[1].

لقد دعا القرآن الكريم الإنسان إلى التدبر والعقل في كثير من آياته بشكل مباشر، فضلًا عن الاستفهام الاستنكاري الذي يشحذ الذهن على التأمل والنظر والاطلاع بقوله تعالى: ﴿أفلا تعقلون﴾، ﴿أفلا يعقلون﴾، وقد وردت هاتان الصيغتان في القرآن الكريم بمجموع تسع وأربعين مرة، كما ورد عن رسول الله ﷺ قوله: «تفكر ساعة خير من قيام الليل»، إشارة لما للتفكر من دور في تعزيز الإقبال على الله وتعظيمه، إلا أن المسلمين باتوا يكتفون بحفظ القرآن دونما تدبر فصدق عليهم ـ وهم المسلمون ـ حال الكفار في قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاء وَنِدَاء صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ﴾[2].

ولم يحث القرآن الكريم على التدبر في آيات الله عز وجل فقط، بل حث على إعماله في إثبات كون الله ثابت الوجود واجبه، فجاءت آياته دليلًا على حقيقة هذا الوجود لمن أنكره، مستعرضًا أدلة إنكارهم ومفندًا لها، ليهيئ العقول لتبني منهجية إعمار العقل قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾[3]. جاء عن جاك بيرك ـ وهو أجنبي ترجم القرآن الكريم للغة الفرنسية في عشرين عامًا ـ قوله: «لقد تبين لي بوضوح عقلانية القرآن، في كل سورة من سوره، وفي كل آية من آياته، وذلك ثمرة مصاحبة ومعايشة طويلة للقرآن الكريم».

ولعلي أتكلم بشكل موجز عن دور القرآن الكريم في تكوين العقلية العلمية الرافضة للعقلية الخرافية والتقليدية، والمحرضة على مناقشة الآراء ومقارعة الحجج بالحجج والبينات، وقد اعتمد

(١) سورة الزخرف، الآية ٢٢.

(٢) سورة البقرة، الآية ١٧١.

(٣) سورة يس، الآية ٧٨.

في ذلك نهجا قام على عدة أمور، منها:

أولاً: رفض بناء المعتقدات على الظن

لقد أكد القرآن الكريم على أن اتباع الظن هو طريق المكذبين والملحدين، وشدد رفضه لهذا الأسلوب في ظل وجود حقائق قوية تدعم أو تقوض هذه المعتقدات بالوسيلة العقلانية. قال تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾[1].

ثانيًا: عدم اتباع الأهواء والعواطف

خصوصًا تلك التي تتدخل فيها الرغبات النفسية. قال تعالى لنبيه داوود عليه السلام: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللّهِ﴾[2]. وقد حذر الإسلام من اتباع الهوى لما فيه من مفسدة للقلب وانغلاقه، فيحرمه ذلك من معرفة البراهين والحجج والدلائل. قال الإمام علي عليه السلام: «إن أخوف ما أخاف عليكم اثنتين طول الأمل وإتباع الهوى، فأما طول الأمل فينسي الآخرة، وأما إتباع الهوى فيصد عن الحق».

ثالثًا: رفض التقليد الأعمى للآباء والأسلاف

ليس لأنه ليس لديهم خير أو نفع، ولكن من باب أن الآباء والأسلاف قد يكون لديهم شيء من الجمود يجب اختباره وإعمال الشرع والعقل فيه للتأكد من صحته وقبوله. قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلاَ يَهْتَدُونَ﴾[3].

(١) سورة يونس، الآية ٣٧.

(٢) سورة ص، الآية ٢٦.

(٣) سورة البقرة، الآية ١٧٠.

رابعًا: رفض التبعية للسادة والكبراء

يرفض القرآن الكريم تدخل السادة والكبراء في قرارات الناس، والاستبداد على عقولهم وإرغامهم على قناعات لا يرتضونها. وقد جاء في القرآن الكريم على لسان نوح: ﴿رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلاَّ خَسَارًا﴾[1]. وكذلك جاء في فرعون: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ﴾[2].

خامسًا: التعبد بالنظر العقلي

وقد وردت في القرآن الكريم آيات كثيرة تدعو للتعبد والتأمل، لما في ذلك من أثر في بناء عقلية الإنسان العلمية الرافضة للظنون والتبعية والتقليد دون هدى. قال تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾[3]، وقال: ﴿قُلِ انظُرُواْ مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[4].

أعتقد أيها الأخوة الكرام أن أعظم أزمة في الوعي الديني المعاصر هي افتقادنا لتلك العقلية الدينية الموضوعية التي تمارس الدلائل والحجج والبينات، وتؤسس منهجية فكرية قائمة على القناعات الصحيحة لا على الشبهات والظنون، وذلك أدى إلى ضلال وانحراف عن التفقه بالنصوص وإدراك معانيها ومراميها وتغييب العقل عنها، فضعفت بذلك الأمة ومادت عن طريق الهدى، فانحطت، وما الخوارج إلا مثال صارخ ترجم واقع الحال الذي تنبأ به الرسول ﷺ بقوله: (يخرج من أمتي قوم في آخر الزمان أحداث الأسنان، سفهاء الأحلام، يقولون من قول خير البرية، يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية)، لذلك قاتلهم علي بن أبي طالب عليه السلام رغم أنهم كانوا أشد الناس عبادة لله خوفًا وخشيةً وزهدًا وانقطاعًا وقراءة للقرآن،

(١) سورة نوح، الآية ٢١.

(٢) سورة الزخرف، الآية ٥٤.

(٣) سورة الطارق، الآية ٥.

(٤) سورة يونس، الآية ١٠١.

بيد أن ذلك لم ينفعهم، فما كانوا بالمتدبرين آياته، المتفقهين فيها، والواعين لمراميها.

مظاهر أزمة الوعي الديني

لأزمة الوعي الديني في واقعنا مظاهر كثيرة، سأحاول أن أوجز في ذكرها دون إنقاص حقها:

أولًا: أزمة التطرف الفكري:

ليس التطرف بكفر أو تخريب، لكنه حتما سبب لذلك. والتطرف عبارة عن ألغام فكرية يتبناها أفراد قناعات لهم، وتبقى في أذهانهم منتظرة فتيلًا يفجرها. والتطرف سببه عقلية البعد الواحد التي ينمو في تربة الفقر الثقافي والاجتماعي والديني، يثري ذلك انعدام مجالات الحوار لدى أفراد عقلية البعد الواحد حيث يبدأ وينتهي على الألسن فقط، بعيدًا عن حضور الأذن والقلب فيه، كالحوارات الدائرة في الموقف من الغرب. وكذلك يسبب التطرف التعصب للمشايخ واعتماد آراءهم دن حياد عنها، خوفًا من كل جديد.

ثانيًا: غياب فقه المقاصد:

ومقاصد الشريعة هي المعاني والأهداف الملحوظة للشرع في جميع أحكامه أو معظمها، وهي الغاية التي وضعت من أجلها أحكام الشريعة الإسلامية. وقد ثبت ـ كما قال الإمام الشاطبي ـ أن وضع الشرائع إنما لمصالح العباد في العاجل والآجل معًا فما هناك حكم من أحكام الشريعة الإسلامية إلا ويهدف لحكمة ومصلحة ويدرأ عن الإنسان مفسدة كل أحكام الشريعة من غير استثناء. وقضية المقاصد الشرعية قضية رئيسية يجب أن ندركها ونفهمها ولا نبتدئ الحكم الذي نعمل به وهو يخالفها، فإن وجدت مخالفة فلا بد أن يكون المقصد قطعيًا يرجع له فيما يتنازع فيه حول تلك المقاصد.

والأمثلة على قضايا فقه المقاصد كثيرة، كالعدل، والجهاد والحب، واللهو المباح، والسياحة الهادفة، والفن، والهوايات التي ترجح مصلحة وتدرأ مفسدة وانحرافا، وهي مقاصد يجب رعايتها والاهتمام بها، خصوصا لفئتي النساء والأطفال، وتأصيل تحريمها بعدٌ عن مقاصد الشريعة حتمًا. كذلك قضية العمران الحضاري، ولا شك أن الله حين خلق الإنسان فلعبادته، أما الأرض فخلقها لإعمارها. قال تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾[1]. والواقع أن هناك قطيعة واضحة بين فقه العبادة وفقه العمارة، بل إن هناك من يرى الانشغال بعمارة الدنيا نوعًا من المخالفة.

وقد وردت في عمارة الأرض نصوص قليلة، يعلل قلتها أنها أمر تتشوق له النفوس وتقبل عليه، كونه موجود في غريزتها، أما العبادة فأمر تحتاج فيه النفوس إلى تهذيب قد يحدث بسبب الإغراق في عمارة الأرض، لذا جاءت النصوص فيه أكثر. وقد ذكر الطاهر بن عاشور أن من أعظم مقاصد الشريعة عمارة الأرض وصلاح الإنسان والنظام الذي يؤسس صلاحه.

ثالثًا: اغتيال دور المرأة الإصلاحي:

للمرأة دور كبير في المجتمع، فهي تمثل نصفه، وتهميشها يمثل تعطيلًا لنصف طاقته، وقد ساواها الإسلام بالرجل في التكاليف والواجبات، ومن العدل في المقابل أن يكون لها حظ في المشاركة والقيام بواجب الدعوة والإصلاح وغير ذلك من الواجبات.

لقد ركز الخطاب الإسلامي في الآونة الأخيرة على حجاب المرأة حفاظًا على هويتها المستهدفة لنزعها من عفافها وكرامتها وحشمتها، ورغم كون هذا الخطاب صحيح، إلا إنه لا يجب أن يكون محور الحديث عنها مقابل تهميشنا لدورها في المجالات الفكرية والثقافية والاجتماعية، حتى أنه ليكاد يغيب الحديث عن ذلك في أطروحاتنا.

(١) سورة هود، الآية ٦١.

لقد ركزنا على قضية إقرار المرأة في بيتها بحجة حفظها، لكننا أسلمناها في المقابل لقبضة القنوات الفضائية التي فرغت مضمونها وأردتها إلى مجرد شكل جميل يسعى في كل ما يسعى إلى استهلاك الكماليات، ومتابعة أحدث صيحات الموضة، والبحث عن الخرافات التي يروج لها السحرة والكهنة.

وأختم أخيرًا بنتيجة دراسة عشوائية على طالبات جامعة الملك عبد العزيز كانت قد نشرت في جريدة المدينة قبل ثمان سنوات، وأشارت هذه النتيجة إلى أن ما نسبته ٨٥٪ من الطالبات بتن يحرصن على متابعة مواد إباحية، وأن ٤٢٪ منهن قل لديهن الحرص على أداء الفرائض الدينية، وضعف تحصيلهن جميعًا. ولئن كان هذا الحال سابقًا، فكيف هو حالنا اليوم؟

نحن بحاجة لمؤسسات تهتم بتفعيل دور المرأة في مختلف مجالات الحياة، الاقتصادية، والاجتماعية، والفكرية، والأسرية، لنضمن للمجتمع التقدم بركنيه الرجل والمرأة معًا.

مُنتدى الثلاثاء الثقافي

Thulatha Cultural Forum